ري العراق وقناطر الهندية

وآل اشور اجروا من قراتهم جداول الخير فاخضلّت بها التربُ
ورشيدوا مدناً عصماء لو نزلت بها الكواكب لاحلقّت بها القببُ
ايراجهم ونجومُ الليل سيف حبكٍ اسوارهم من بروج الشمس تقتربُ
كم نيّفوا عبّأوا كم دونهم سحقوا الشام دانت لهم واروم والعربُ
كرّت قرون وشمس الشرق مشرقة والغرب في ظلمات الجهل يضطربُ
لكنها النجع يأتي بعده بطرٌ وآفة المفلحين اللهو واللعبُ

هذا بعض ما قلناهُ منذ بضع سنوات حين قابلنا بين الشرق والغرب ونحن متلمون من الاول الى الثاني . وكلما فكّرنا في امر بابل واشور وسائر ممالك الشرق الادنى التي استولى عليها آل عثمان ولم يعيدوا اليها شيئاً من مجدها السالف عجبنا من تصاريف الدهر وغير الايام وشحنا كل بارقة لعلّ الزايا تولّي بعد ما توالت ويستفيق الشرق من غفوته وينهض جواد العزيمة من كبوته قبلما يرتهن الاجنبي البلاد ويعمي سكانها أجراء في ضياعهم وعبيداً في بيوتهم

والبلاد ولاسيما العراق او ما بين النهرين من اخصب بلدان المسكونة تربةً فان الفرات ودجلة يحملان اليها بفيضانهما من الطمي (الابليز) كل سنة اربعة اضعاف ما يحملهُ النيل الى واديهِ نعم ان الطمي اذا زاد كثيراً فقد يضيق به الزارع ذرعاً لانهُ يملأ الترع ويسدّ المجاري ولكن لا يتعذر على رجال الهندسة الآن كما لم يتعذر عليهم في عصر البابليين والاشور بين ان يتحكموا بهِ حتى ينالهم نفعهُ ولا يصيبهم منهُ ضرر . وذلك بانشاء السدود في طريقهِ حتى تُتقى زيادة الطمي فوق السدود ولا تُغمر الاراضي الزراعية ثم حفر الترع لاجراء المياه من فوق السدود الى الاراضي العالية على الضفتين . كذا فعل نورش الاكبر وغيرهُ من الملوك الذين تلوهُ على ما في التواريخ القديمة وجرى الاسكندر المكدوني مجراهم في سد افواه الترع زمن الفيضان لكي لا تطمى وفتحها بعد ذلك فان مياه الفرات ودجلة كانت تستخدم كلها للري في غير زمن الفيضان كما تستعمل مياه فرعي النيل الآن فرع دمياط وفرع رشيد

والمرجح ان تلك البلاد بلغت اوج مجدها في عهد بني ساسان لانهم بنوا على ما خلفتهُ لهم العصور السالفة فان الترعة المعروفة باسم نهروان وعرضها ٤٠٠ قدم وعمقها ١٥ قدماً كانت تروي كل البلاد شرقي دجلة والترعة المسماة دجيل كانت تروي كل البلاد غربيهُ وكان

يتفرع من الفرات اربع ترع كبيرة تروي سائر البلاد حتى قال اميانوس مرسلينوس الذي طاف فيها في القرن الخامس انها روضة غناء من طرف الى طرف

ثم دوّخ العرب تلك البلاد في القرن السابع فوجدوها لا تزال في اوج مجدها ومصّروا فيها الكوفة والبصرة وواسط بدل عواصمها القديمة وبنوا بغداد فصارت دار الخلافة ولا تزال الى يومنا هذا أكبر مدن العراق . وفاقت بغداد عواصم الدنيا في زمن الرشيد والمأمون ثم اخذ العراق يهبط رويداً رويداً واجهز عليه المغول في زمن جنكيز خان والتتار في زمن تيمورلنك في القرن الثالث عشر والرابع عشر فخربت كل اعمال الري العظيمة حتى لم يبقَ منها واحد فزال سد نمرود من دجلة فهبط ماؤهُ ٢٥ قدماً وبطل جريان الماء في ترعتي نهروان ودجيل واستنقف ضفاف دجلة العالية قفاراً قاحلة . وخرّب ضفتهُ اليسرى مما يلي تخوم العجم ولم تعد مياههُ تجري في الترع التي تحتها الاَّ في زمن الفيضان . وطمت كل الترع الآخذة من الفرات وصارت مياههُ تنصبُّ في البطائح والمستنقعات ولولا الاعتماد على زرع الارز الذي تصلح لهُ الارض الغامرة لما بقي في البلاد زرع يذكر

ومساحة اراضي العراق ١٢ مليون فدان اي انها مضاعف الاراضي الزراعية في القطر المصري لكن تسعة ملايين فدان منها امست قفاراً قاحلة ومليوني فدان ونصف مليون صارت مستنقعات وما بقي وهو نصف مليون فدان لا يزال يزرع اشجاراً وحبوباً مختلفة

والمطر قليل هناك لا يزيد متوسطهُ على عشرين سنتمتراً في السنة وقد لا يصل في بعض السنين الى أكثر من عشرة سنتمترات . فالبلاد حارة قليلة المطر فيتوقف خصبها على ما يمكن ان تروى بهِ من نهريها الفرات ودجلة والنهران كبيران جداً يبلغ ما يجري في الفرات زمن الفيضان ٤٠٠٠ متر مكعب في الثانية وفي دجلة ٦٠٠٠ متر مكعب . وما يجري في كلٍّ منهما زمن التحاريق ٣٠٠ متر مكعب في الثانية من الزمان

ويكون الفيضان في مارس وابريل ومايو والتحاريق في اغسطس وسبتمبر ولذلك يسهل ري ٦٠٠٠٠٠٠٠ فدان زمن الفيضان للزروعات الشتوية كالقمح والفول وثلاثة ملايين فدان زمن التحاريق للمزروعات الصيفية كالقطن والذرة وذلك من غير انشاء خزانات . والآن اذا جادت السماء بمطرها زرعت السهول على الجانبين شعيراً لانها ليست قفاراً كصحاري القطر المصري لا تنبت شيئاً بل هي سهول فيحاء لا تحتاج لتمو الزرع فيها الاَّ الى الماء وزد على ذلك فان النخل ينمو في كل جزيرة العراق ولا يقلُّ عدد ما فيهِ منها عن عشرة ملايين نخلة

والحشائش كثيرة في العراق وهي من اجود الانواع والارض منبسطة لا تحتاج الى تقصيب وهي صفراء اللون لاسوداء كارض مصر وفيها كثير من الجير (الكلس) ولذلك يسهل اصلاحها وحرثها وتنعيمها . وتكثر فيها الآن انجم عرق السوس والنباتات الشائكة من الفصيلة القرنية وفي المستنقعات اشجار الحور والصفصاف

والحقائق المتقدمة مقتطفة من خطبة للمهندس المشهور السر وليم ولكوكس وقد اقنع بها ولاة الامر العثمانيين حتى شرعوا في بعض الاعمال التي يصلح بها ري العراق فاتفقوا مع محل السر جون جكسن الانكليزي منذ ثلاث سنوات على بناء سد كبير في رأس الترعة الهندية الآخذة من الفرات لتحويل مياهه كلها الى مجراها الطبيعي القديم بدلاً من جريها في الترعة الهندية حيث غمرت المياه جانباً كبيراً من الاراضي التي هناك . وقد تم هذا العمل في اواخر العام الماضي فاقيمت قناطر في اول الترعة الهندية في مجرى جديد حفر لوصل مجرى الفرات الحالي في اول الترعة الهندية بمجراه الاصلي القديم وعرض هذا المجرى ٨١٥ قدماً فطول القناطر مثل عرضه وهي مؤلفة من ٣٦ فتحة سعة كل منها خمسة امتار وقد جهزت كلها بالبوابات اللازمة لرفع منسوب ماء الفرات وراءها الى الحد المطلوب . وفي الطرف الايمن من هذه القناطر هويس عرضهُ ثمانية امتار لمرور المراكب الشراعية والسفن التجارية الصغيرة من امام هذه القناطر الى ما وراءها . وقد وصلت الفتحات من اعلاها بحنايا من البناء المتين ووضع فوق الهويس جسر (كبري) متحرك يفتح لمرور المراكب والسفن حين الحاجة فتألف من ذلك كله طريق يجتازها المارون من الضفة الواحدة الى الاخرى

واقيم امام هذه القناطر على بعد مئة وستين قدماً منها حاجز من البناء المتين ليناصرها على ابقاء الماء وراءها على منسوب معلوم وليحمل عنها بعض الضغط الشديد الواقع عليها من الوراء بحجزه مقداراً كبيراً من الماء امامها فيتكافأ الضغط عن جانبيها بعض التكافوء ويدفع بذلك عن بنائها قوة اندفاع الماء من فتحاتها . والشيء في هذا الحاجز هويس آخر محاذٍ للهويس الذي في القناطر ومساوٍ لهُ في العرض

وقد صار في الامكان رفع منسوب الماء في الفرات بواسطة هذه القناطر والحاجز الذي امامها في فصل الصيف (ايام التحاريق) الى ست عشرة قدماً وست بوصات فيتيسر بذلك ارواء بقاع كبيرة من اخصب الاراضي واغناها تربة فتزهو بالزرع وتحفل بالضرع بعد ما اقفرت منها قروناً كثيرة

وعلى بعد نحو ثلاث مئة قدم وراء تلك القناطر مأخذ ترعة الحلة التي كانت تروي في

سالف الايام جميع الاراضي التي على جانبيها من بلدة الحلة الى بابل وما وراءها . وقد طهرت هذه الترعة الآن من الطمي الذي تكدس فيها مسافة خمسين ميلاً واقيم في اولها قناطر مؤلفة من ست فتحات عرض كلٍّ منها تسع اقدام وعشر بوصات وهو يمر لمرور المراكب عرضهُ ست وعشرون قدماً ووصلت هذه الفتحات بحنايا ووضع فوق الهويس جسر متحرك فتألف منها طريق يجتازها الناس من الجانب الواحد من الترعة الى الآخر وجهزت الفتحات بالبوابات اللازمة لاخذ القدر الكافي من الماء . ولم تبن هذه القناطر على الفرات مباشرة بل اقيمت بعيدة عنهُ قليلاً فاضطروا لذلك ان يصلوا بينها وبينهُ مجرى جديد عرضهُ ١١٤ قدماً

وهم يعملون الآن في اقامة قناطر اخرى في الهبانية وحفر مسيل منها الى بحيرة صغيرة وبطيحة طبيعية هناك حتى تصرف بها المياه الزائد في اثناء الفيضان الى البحيرة والبطيحة من غير ان تطغو على جانبي الفرات كما هي الحال الآن

واحتُفل في ١٢ دسمبر الماضي باقفال قناطر الترعة الهندية احتفالاً باهراً حضرهُ والي بغداد وكبار الموظفين وقناصل الدول وكانت ساحة الاحتفال عند مأخذ ترعة الحلة فوق القناطر بنحو ٤٥٠ متراً . وخطب المستر ارثر هويتلي نائب عمل السر جون جكسن المقاولين بالفرنسوية فشكر الوالي وسائر الحضور وقال ان العمل الهندسي الذي اجتمعوا للاحتفال باتتاحهِ سيعيد الى العراق مجدهُ السالف الذي فقدهُ بتضعضع ماء الري . ثم ذكر تاريخ هذا العمل من حين انتدبت الحكومة العثمانية السر وليم ولكوكس لمعاينة البلاد ورسم الرسوم اللازمة لريها فاتمَّ عملهُ سنة ١٩١٠ وللحال قرَّ القرار على انشاء قناطر الترعة الهندية ومسيل الهبانية على الفرات وتمَّ انشاء القناطر وسيتم انشاء المسيل بعد زمن قصير ويسلم للحكومة

ووصف المهندس فقال ان قناطر الهندية انشئت لرفع مياه الفرات وتوزيعها على الترع المختلفة التي فوقها ولاسيما ترعة الحلة التي هي مجرى الفرات القديم . ومسيل الهبانية لخزن مياه الفيضان التي تطغو على البلاد في شهري ابريل ومايو وتغرقها . وقناطر الهندية ٣٦ فتحة سعة كل منها خمسة امتار وعلوها سبعة امتار ولها ابواب من الفولاذ (الصلب) للتحكم بما يراد جريهُ منها من الماء وتحت هذه القناطر قناطر اخرى تقوم مقام القناطر القديمة التي كانت بعيدة عنها نحو سبع مئة متر هذا عدا هويسي ترعة الحلة ولا بدَّ من عمل اعمال اخرى تكميلية كتقوية سد التراب الذي في الفرات وما اشبه

ووقف الوالي بعدهُ وخطب بالتركية فقال كلنا يعلم ان صنجق الديواني اهم اقسام العراق وان ما حلَّ بهِ من الخراب نتج عن تحول مجرى الفرات الذي كانت الخيرات تتدفق منهُ على

البلاد ولذلك عزمت الحكومة ان تردهُ الى مجراه الاصلي لرد الخصب والرفاهة الى العراق ووعد بان يبذل اقصى جهدهِ لاتمام الاعمال اللازمة لذلك واثنى على المقاولين والمهندسين لما بدا منهم من الهمة والمهارة والاتقان في اتمام هذه الاعمال وقال ان ما تمَّ حتى الآن لا يكفي للوصول الى الغاية المنشودة ولا بدَّ من اتمام اعمال اخرى لكي يسهل ري كل تلك البلاد وتتوفر الخيرات لسكانها ووعد بان يبذل قصارى جهدهِ لنيل المراد

وختم بشكر الذين حضروا للاشتراك في هذا الاحتفال ثم مشى هو والجمع الى حيث اقيم سد من التراب لمنع الماء من الجري نحو اخلة فذبحت الذبائح وتلي الدعاء وامسك الوالي وفتٌ من رفوش العمال وازال بيدهِ جانباً من تراب السد وللعمال اخذ عشرون من العمال يعملون برفوشهم فازالوا السد كلهُ في خمس دقائق بين زغردة النساء واطلاق البنادق

وكانت شركة المقاول السر جون جكسن قد اعدت وليمة فاخرة لمئة وخمسين مدعوًّا تخطب فيها ادمون افندي بشاره رئيس مهندسي الحكومة خطبة نفيسة قال فيها ان عهد انحطاط العراق قد انقضى ولاحت تباشير عهد جديد بانشاء هذه القناطر التي هي من نعم الحكومة الدستورية وشكر ناظر النافعة وولاة بغداد والسر وليم ولكوكس والسر جون جكسن وكل الذين اشتركوا في هذا العمل وحث سكان العراق على بذل الجهد لارجاع بلادهم الى ما كانت عليهِ من الخصب والعمران في سالف عهدها وختم كلامهُ بالآية القائلة وخلقنا من الماء كل شيء حيٍّ

ثم وقف مستر باشا رئيس مهندسي القسم الالماني من سكة بغداد الحديدية وهنأ شركة السر وليم جكسن على اتمامها هذا العمل

واخيراً وقف المستر هوبتلي وشكر ادمون افندي بشاره ومستر باشا على ما تكرما بهِ من تهنئة محل السر جون جكسن . واستطرد الى شكر رجال الحكومة العثمانية على ما ابدوهُ لهم من المساعدة وقال ان كل ولاة الذين تناوبوا على بغداد من اول الشروع في هذا العمل الى الآن عرفوا اهميتهُ وبذلوا ما في وسعهم لمساعدتهم فيهِ قاصدين نفع البلاد لا غير . وشكر رجال الخزينة العثمانية لانهم لم يضنوا بالمال اللازم لاتمام هذه الاعمال مع ما كانت عليهِ الدولة احياناً من الضيق المالي . وكرَّر الشكر لادمون افندي بشاره والمهندسين الذين معهُ على ابدوهُ لهم من المساعدة الفنيَّة وقال ان ادمون افندي ورجالهُ كانوا يفرطون في تشديد المراقبة ولكنهم كانوا يقومون بما يغلب منهم ذمَّةً